لقد رأى من آيات ربه الكبرى !!

إبراهيم مصبّح

التحرير

لكن التحقيق الذى يقبله المنطق والعقل أن قوله ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى . . أى أنه رأى الآية الكبرى من آيات ربه . . وهى التى تقف العقول فيها وقفة ، لأنها موصوفة من الله بأنها الآية الكبرى ! !

الاسراء يتكلم عنه القرآن فيقول : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا . إنه هو السميع البصير . هذا النص القرآنى هو عمدتنا فى توثيق هذا الحدث .

وحين يجئ النص القرآنى يحدث ، فليس لنا الا أن نؤمن به لأنه ورد من الله . وليس لعقولنا أن تبحث البحث الجارى فى قوانين الأرض ، وقوانين البشر لتحاول أن تفهم قوانين الله . ولكن مادام الله هو الذى قال ، فالأمر الذى يجب على المؤمن هو أن يسلم به ، وبعد ذلك على عقله أن يبحث فى قياسات هذا التسليم أو فى مبررات هذا التسليم فيجد المبرر الأول للتسليم أنه آمن أولا بالله .

فالانسان أول ما يدخل على الدين يؤمن إيمان القمة بربه . بالله وبعد ذلك يتلقى عن الله . إذن فتلقيه عن الله مشروط بأنه آمن بالله الذى يتلقى عنه ، فما عليه بعد ذلك الا أن يوثق الكلام أصدر من الله أم لم يصدر ؟ ! !

واذن فعملة إيمان المؤمن بأى حكم أو بأى حدث صادر من الله هو توثيق صدوره من الله . بعد أن يوثق صدوره من الله ما عليه الا أن يؤمن به وبأنه حدث ، وبعد ذلك لعقله أن يجول بطاقاته حتى يمكن أن يؤنس عقله بأن ذلك الحدث يكون .

وفى هذا المجال يقرر الامام الشيخ محمد متولى الشعراوى :

إن حدث الإسراء استهله الله سبحانه وتعالى بكلمة – سبحان – ومعنى سبحان أول ما تقع على الذهن تعطى الانسان طاقة قوية تبعد عنه كل شبه المقارنة ، التى تأتى بين قانون المادة الأرضى الانسانى البشرى ، وبين قانون الله ، فمعنى سبحان الله أن الله منزه فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله فإذا صدر فعل قال الله : إنه صدر منى ، فيجب أن أنزهه أنا عن قوانين البشرية والا اخضع فعل الله إلى قانون فعل .

ولذلك استهل السورة بقوله : « سبحان » حتى يكون أول مايقرع الانسان لذلك الحدث العجيب الغريب الذى تقف فيه العقول « سبحان » أى ننزيه لفعل عن أفعالكم ! ! أى ننزيه لفعل الله عن أفعال البشر ! ! ومعنى ذلك أن قانون الله فى الفعل ليس كقانوننا ، فى الفعل .

ثم بعد ذلك « الذى أسرى » بعبده ، فالله هو الذى أسرى ، ومحمد ﷺ هو الذى أسرى به ، واختار الله لفظا يعطى حيثية تلك التجربة ، وهو « بعبده » .

وبعد ذلك بداية الإسراء « من المسجد الحرام » ونهايته « إلى المسجد الأقصى » ثم قال العلة لنريه من آياتنا . ثم بعد ذلك قال العلة الدافعة لكل هذا لماذا نريه من آياتنا ؟ إنه هو السميع البصير .

سمع لماذا ؟ وبصير بماذا ؟ كان من الممكن أن يقول ، على نسق البشر ، بعد أن يريه الآيات : إن الله على كل شئ قدير ، إن الله وهاب .

أما أن يأتى بأنه « هو السميع البصير » فهذا ليدلك على العلة الحقيقية التى استوجبت أن يسرى سبحانه وتعالى برسوله ﷺ فقد سمع الله الايذاء الذى أوذى به رسوله ﷺ وقد رأى الله مايتعرض له من الجفاء والاستهزاء ومن السخرية ومن الإهانة . كل ذلك بمرأى ومسمع من الله ، فحين رأى الله ذلك وسمع ، أراد أن يريه الآيات فأسرى به . (. . من المسجد الحرام)

وبعد ذلك ننتقل الى مشهد آخر من مشاهد هذا الحدث الجلل ، وهو : لماذا الإسراء من المسجد الحرام ؟

يقرر الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى ردا على هذا السؤال : أن الكعبة كانت انطمرت كبيت من بيوت الله ، لم يعد لها هذا المظهر ، وصيت بيت العرب ، وشحنت بالأصنام ، هذا شئ ، وبيت المقدس ، له قدسية مع موسى وعيسى ، وأنبياء بنى اسرائيل .

ورسول الله ﷺ ، لم يبعث لقومه فقط أى لم يخص العرب فقط كما يريدون هم أن يقولوا ! ! إنما جاء عالميا ، فاسراؤه من مكة إلى بيت المقدس كأنه أدخل بيت المقدس فى مقدسات دينه الجديد .

وهذه العملية توضح أن دينه مهيمن على كل البقع ، وكل مقدسات البقع ، وكذلك أيضا اتجهنا إليه أولا ، فلا يأتى واحد ويقول : أنتم لكم دينكم ، ونحن لنا ديننا . . لا ، صحيح دينا جاء فى مكة ولكنه مهيمن على سائر الأديان ، ورسولنا مهيمن على مقدساتنا ، وهذه المقدسات داخلة ايضا فى مقدساتنا ، وأصبح بيت المقدس فى مقدساتنا لأنه صار منتهى مسرى النبى ، وبداية معراجه ﷺ .

إذن فالأسراء آية أرضية أمكن أن يقام الدليل عليها ، وإذا ما أمكن إقامة الدليل المادى المرئى بواسطة البشر عليها ، فهمت العقول أولا أن المسافة قد اختصرت لرسول الله ﷺ ، وأن قانون الزمن قد ألغى عنده اذن فقد خرق له الناموس .

حديث قدسى

أنا أهل أن أتقى

عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية : « هو أهل التقوى وأهل المغفرة » .

فقال : قال الله عز وجل : أنا أهل أن أتقى ، فلا يجعل معى اله آخر ، فمن اتقى أن يجعل معى الها آخر ، فأنا أهل أن أغفر له .

فاذا عرفنا أن الناموس خرق له فى أمر مادى نعلمه ونستدل عليه بعقولنا ، فإذا حدّث رسول الله ﷺ بعد ذلك أن قانون السماء قد خرق له فاخترقه ، فمن الممكن للعقل أن يستأنس بأن الذى خرق له الناموس فيما نعلم ، وفيما استدللنا عليه قادر «على أن يخرق له الناموس فيما لانعلم» .

إذن فآية الإسراء كانت إيمانا لعملية الإيمان بالمعراج ، فالله الذى خرق القانون لمحمد ، فى المسافة والزمن ، خرق له القانون فى المعراج ، للسموات السبع ، ولما لم يكن أحد صعد إلى سدرة المنتهى ، أو فى الطريق اليها ، فلا يمكن أبدا أن يقام الدليل من المخلوقين الذين يسمعون ذلك الا بصفة أمر حس له وهو الإسراء .

ولذلك كانت آية الاسراء إيمانا للعقول بإمكانية الإيمان بما يحدث به الرسول ﷺ ، لأنه انتقل الى السماء بقانونه ، لا بالقانون الذى نقله من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى فى ذلك الزمن الوجيز .

وقد وصف المسجد ووصف مافى الطريق من بيت المقدس إلى مكة ، كل هذا يؤنسنا بأن الرسول ﷺ ، حين يحدثنا عن المعراج ، وعن مرائيه فى المعراج يكون صادقا فيما حدث به (ونلاحظ أن القرآن حينما تعرض لآية أرضية وهى الإسراء قال : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه) .

.. فكأن الفعل هنا إيراء وماهى الإرادة ؟

الإيراء

الايراء : أن نجعل من لايرى .. يرى ، وذلك إما بتحويل المرئى إلى قانون الرائى أو بنقل الرائى لأن ينفذ إلى قانون المرئى .

ولنأخذ مثلا توضيحيا لذلك : هناك الميكروب الذى يكتشف ، فالميكروب كان موجودا قبل أن يكتشف وليس معنى اكتشافه أنهم أوجدوه ، ولكنه كان موجودا دون أن يكون للحس طريق إليه .

فلما اخترعت المجاهر – الميكروسكوبات – أمكن للذى لايرى وهو « الميكروب » أن يرى ، فحصلت ارادة للميكروب الذى لم يكن يرى ، . يرى لماذا ؟ بعملية تحويل وهى أننا أتينا بعدسة تكبر لنا الأشياء فما لم يكن يرى أولا ، أصبح يرى الآن .

ومثلا : المريض يبصره يذهب إلى الطبيب ، الطبيب يعطى له نظارة ، والنظارة تكبر له الأشياء ، فما لم يكن يراه أولا ، رآه ثانيا ، وقد يجرى له عملية جراحية فى عينه ، بحيث لا يحتاج إلى هذه النظارة ، فإذا لم يحتج إلى هذه النظارة ، لايرى ، يقال : رأى هو .

اذن : فالارادة إما أن تكون بتغيير مافيه إلى قانون الرائى فيرى ، وإما بإعطاء شئ فى المرئى لايرى بذاته ، فلما جاء حادث الإسراء قال : لنريه ، لأن محمدا ﷺ على الأرض .. وبشرى بقانون البشرية وقانون الإبصار فيه خاضع لقانون الضوء ، وقانون الضوء لايختلف فيه أحد .

فإذا كانت هناك آيات من غيب الله فى الأرض فلابد أن يحدث له « ارادة » لأنه بطبيعته لايرى هذه الأشياء ، فالإرادة إذا كانت هناك فى الأرض ، لكن حينما ينتقل الرسول ﷺ إلى الملأ الأعلى ، ويلتقى بالأنبياء الذين ماتوا قبله ، ويلتقى بالملائكة ، فقد تغير شئ فى ذاتيته ، ﷺ كأنه طرح البشرية ، وأخذ شيئا من الملائكية التى ترى بنفسها .

فلما صعد إلى السماء قال : ماذا قال ؟ « لقد رأى » ولم يقل : أريناه .. « لقد رأى من آيات ربه الكبرى .

ففى الإسراء قال : أريناه ، وفى آيات السماء .. فى المعراج قال : رأى .. ويرى ، فكان الرسول فى بشريته فى الأرض محتاجا إلى أن يعدل القانون فى ذاته بالنسبة للرائى والمرئى ، وأما فى السماء فقد أخذ وضعا آخر ، هذا الوضع الآخر : أصبح بذاته يرى ، لأنه أصبحت هناك ملائكية ، فالبشرية طرحت فى الأرض ، والملائكية أصبحت هى المسيطرة ، على رسول الله ، فأصبح يرى ، لكن فى الأرض كانت ارادة .

وننتقل مع هذه الرحلة المباركة ، إلى قوله سبحانه : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .. فكان ذلك اخبارا من الله ، وليس اخبار محمد ، حيث لم يقل محمد « لهم » ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ..

ويقرر الامام الشعراوى : أن الكبرى هنا – المفسرون حين يتكلمون يجعلونها وصفا للآيات فهو قد رأى آيات ربه .. الآيات الكبرى العظيمة – لكن التحقيق الذى يقبله المنطق والعقل .. أن قوله : لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، أى أنه رأى الآية الكبرى من آيات ربه .

فكأن آيات الله التى حدث عنها هى آيات من آيات الله ، وحسبها عظمة وعجبا أن تنسب إلى الله . لكن فيه آية كبرى ، وهى التى تلفت العقول فيها وقفة ، لأنها إذا كانت فى الآيات العادية ، وقفت هذه الوقفة ، فما بالكم بها مع الآية الموصوفة من الله بأنها الآية الكبرى .

أى لقد رأى الكبرى من آيات ربه ، فكأن الكبرى هى المفعول – وليست وصفا لآيات . ولكن لقد رأى من آيات ربه .. ماذا رأى ؟ رأى الآية الكبرى التى هى أعلى من هذه الآيات ، لاشك أن جبريل كان معه فى الأرض ، كان يشاركه هذه المرائى ، وفى السماء أيضا كان معه جبريل ، لكن فى الآية الكبرى ، كانت المرحلة الأخيرة ، التى لم يقدر عليها جبريل ، ولا أحد من الملائكة وانفرد بها رسول الله ﷺ ..

وهى منطقة أخرى بعد سدرة المنتهى ، فينتهى حد جبريل ، ثم بعد ذلك يزج برسول الله فى سبحات النور ، ولم يكن جبريل معه ، وهذا دليل على أن محمدا ﷺ ، قد ارتقى ارتقاء آخر ونقل من ملائكية لاقدرة لها ما وراء سدرة المنتهى إلى شئ من الممكن أن يتحمل إلى ماوراء سدرة المنتهى ، دون مصاحبة جبريل عليه السلام .

اذن : فمحمد كان بشرا فى الأرض مع جبريل ، وبعد ذلك كانت له ملائكية مع الرسل ومع جبريل فى السماء ، وبعد ذلك كان له وضع آخر ، ارتقى به عن الملائكية حتى إن جبريل نفسه يقول له أنا لو تقدمت لاحترقت .. وأنت لو تقدمت لاحترقت ، فذاتية محمد حصل فيها شئ من التغيير ، الذى يناسب ذلك الملأ الأعلى ، فجبريل بملائكيته لايستطيع أن يخترق وألا أحترق ، أما هو فيستطيع أن يخترق .

وعلى هذا فثلاثة أشياء حدثت لمحمد : بشرية فى الأرض معهودة بالمدد ، بعد ذلك ملائكية فى السماء قبل سدرة المنتهى ، ثم بعد ذلك ملائكية فوق الملائكية ، وهى التى كانت بعد سدرة المنتهى يصير فيها « قاب قوسين أو أدنى » ويتعرض فيها إلى خطاب الله وإلى رؤيته سبحانه ، جل فى علاه . □

العمل حياة..

العمل سلوك يستمد وجوده من حرص الإنسان على الحياة .. وهو نبض الحياة والطريق الصحيح لبناء الإنسان وبناء الدولة القادرة على مواجهة الغزو الحضارى

وحسب العمل شرفا أيضا أنه يضع أقدامنا على أول طريق الحياة الطيبة التى يشتاق إليها كل منا لنفسه وأهله وأمته « وفى هذا المجال نقرأ قول الله تبارك وتعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم بأحسن ماكانوا يعملون » .

والحياة الطيبة هى حياة الراحة القائمة على العمل بطاعة الله ورسوله والانشراح بها انها حياة الرزق الطيب ، إنها حياة القناعة .. إنها السعادة وليس هناك أسعد من حياة تقوم على التقوى أو الاستقرار فى عمل الخير يبذله المؤمن من أجل النفس ومن أجل الآخرين والعمل الذى يباركه الله تعالى هو العمل الصالح الذى يوافق شريعته على شريطه أن يكون خالصا لوجهه الكريم .

ويروى فى هذا أن رجلا سأل رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله إلى أقف المواقف أريد وجه الله ولكنى أحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه ﷺ حتى نزل قول الله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا » .

والعمل الذى يباركه الله تعالى لا ينفير بمكان ولازمان فكما يكون فى المسجد يكون فى الشارع .. يكون فى المصنع .. يكون فى المؤسسة .. يكون فى كل قطاع من قطاعات الحياة .. التى لها صلة بالانسان والأخذ بيده نحو الافضل والأسمى ..

ولقد كان نبينا محمد ﷺ هو القدوة الصالحة فى مجال العمل .. أرأيتم كيف رعى الغنم ؟ أرأيتم كيف باشر التجارة ؟ أرأيتم كيف اسهم فى حفر الخندق فى غزوة الأحزاب ؟ ثم أرأيتم كيف شارك فى بناء مسجد المدينة بعد هجرته من مكة ليجتمع فيه المسلمون ويتدارسوا أحكام دينهم مما جعل أصحابه يتسابقون إلى العمل وعلى أفواههم هذا النشيد :

ان قعدنا والنبى يعمل – فذاك منا العمل المضلل .. وفى مجال دعوته ﷺ إلى العمل نجده يقول :

« لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتى رجلا فيسأله أعطاه أو منعه » .

ويقول : إن قامت الساعة وبيدأ حدكم فسيلة يعنى النخلة التى تقطع من الأم فتغرس أو كل عود يقطع من شجرته فيغرس – فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر » وقد روى أنه ﷺ قبّل يدا ورمت من كثرة العمل وقال : « تلك يدنجبها الله ورسوله » .

فيأيها الراغبون فى حياة العزة والكرامة .. فى حياة التطور والرخاء ليس أمامكم الا أن تعملوا فى صدق واصرار لكى تحققوا أمر الله البكم « وقل إعملوا » .. اعملوا فى البر .. واعملوا فى البحر .. وفى الأرض والسماء .. واعملوا للدين والدنيا ، فما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا والله لايضيع أجر من أحسن عملا .

محمد ابراهيم الخطيب